اللغة القرآنيّة

قراءةٌ في الدّلالات

الشيخ د. جعفر المهاجر

من المعلوم والثابت ، أنّ القرآن العزيز قد استنفد إمكانات اللغة العربيّة . هذا أمرٌ ثابتٌ حتى عند بعض الذين لا يؤمنون بالتنزيل من غير المسلمين .

لكنّ هذه المقولة على ثبوتها ووضوحها ليس حُجّةً منهجيّةً لمَن يضع النصّ القرآني على صعيدٍ واحد من حيث الدّلالة . هذا البحث ينطلقُ من أنّ في القرآن أكثر من دلالة للغة وحتى للمُفردة نفسها .

هناك آيةٌ تصلحُ مفتاحاً للتأمّل في هذه الإشكاليّة ، هي قوله سبحانه :

" هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكَمَاتٌ هنّ أُمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والرّاسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يذّكّر إلا أولوا الألباب " (آل عمران / ٧) .

أنّ لُبّ الآية هو أنّ في القرآن ما هو مُحكَمٌ وما هو مُتشابه ، والمُحكمُ حين يأتي في مُقابل المُتشابه هو البيّنُ القطعيّ الدّلالة . أمّا المُتشابه فهو الكلام الذي يتشابه معناه مع أمرٍ أو فكرةٍ قائمةٍ في ذهن المؤوِّل ، فيزعمُ أنّ المعنى القرآني في هذا يأُولُ (وهذا هو أصلُ الاشتقاق) إلى مافي ذهنه هو. ويقولُ أهل التفسير أنّ سبب نزول الآية أن وفد "نجران" النصارى حاجّوا النبي(ص) في المسيح (ع) فقالوا:"أليس هو كلمة الله وروحٌ منه؟ " فقال: "بلى ! " فقالوا:"حسبُنا ! " (تفسير التبيان :٢ / ٣٩٩ ، مثلاً) . أي أنهم فسّروا "كلمة الله" و "روحٌ من الله" القرآنيّتيَن (النساء / ١٧٠) بما يأُولُ إلى معتقدهم هم بأن المسيحَ ابنُ الله . الأمرُ الذي اعتبرته الآية بحقّ " ابتغاءً للفتنة " . نقول هذا مع تأكيدنا بأنّ المورد لا يُخصّص الوارد . خصوصاً وأنّ ختام الآية له معنى وقوّة القاعدة والمنهج .

(١)

بعد هذه المقدّمة المنهجيّة ندخلُ فيما يقعُ تحت عنوان البحث ، فنقول :

ممّا لاريب فيه أنّ أكثر المادّة القرآنيّة هو من وُجهةٍ دلاليّةٍ من اللغة المُباشرة ، أي التي كان الناسُ يتداولُون مفرداتها . ويدخلُ في ذلك آياتُ الأحكام ، والتوجيهات ، ورواية الأحداث الآنيّة ، والعقيدة القتاليّة ، والنظام الأخلاقي وما إلى ذلك . مع ضرورة التنويه بأنّه حتى في هذا الباب فإنّ القرآن منح بعض المفردات معانيَ جديدة ، هي جَماعُ ما يُسمّى في كُتُب أصول الفقه بالحقيقة الشرعيّة ، من مثل : طهارة ، وضؤ ، صلاة ، صيام ، حجّ ، زكاة ، خُمس ، جهاد الخ . وهذا واضح . ومعلومٌ أنّ المُجتمع الإسلاميّ الناشئ قد استوعب هذا التبدّل الدّلالي دون صعوبة ، بحيثُ دخلتْ كلماتُها بسرعة في اللغة اليوميّة .

فهذه المادّة إجمالاً نُسمّيها الدّلالة اللغويّة القرآنيّة الأوّليّة والأساسيّة .

(٢)

ولكن هناك نمطٌ آخَر من الدّلالة اللغويّة مُختلف تماماً هو ذلك الذي يتعلّق بشؤون المولى سبحانه ومشاهد اليوم الآخِر واسرار الكون .

لقد قلنا أعلاه أنّ القرآن قد استوعب إمكانات اللغة العربيّة . من المعلوم أن اللغة ، أي لغة ، هي جَماعُ الخبرات البشريّة . فماذا إن كانت تدورً على ما هو خارج هذه الخبرات ؟ هنا تسقطُ اللغة المُباشرة ، لتدخل فيما يعتبره عامّةُ أهل التفسير من المجاز ، هو نفسه الذي يُسمّيه القرآن المُتشابه ، أي الذي يُشبه صورةً قائمةً في أذهاننا دون أن يكون منها بالضرورة .

لنأخذ كلمة "العرش" مثالاً في قوله سبحانه :"هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء" (هود/٦٧) . إذا اعتبرناها من المجاز واسترحنا ، فسنكون بذلك قد أسقطنا المعنى القرآني . لأن كلمة "العرش" مقصودة دلاليّاً وإلا لماذا استعملها النصُّ دون غيرها ، وإن يكُن معناها غير مُحقّق لدينا موضوعيّاً . هناك بالتأكيد شئٌ مّا يُسمّيه القرآن "العرش" ليس له في كلام البشر ما يؤدّي معناه . والأمرُ يُصبح أبعدَ عن الفهم حين نتلو قوله مثلاً : " والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسموات مطويّاتٌ بيمينه" (الزّمر/٦٧) . أو : " نار الله الموقَدَة . التي تطّلعُ على الأفئدة . إنّها عليهم مؤصدة . في عَمَدٍ مُمدّدة " (الهُمَزَة /٩.٦) .

في هذه المثالات . وغيرُها كثير . نُقطةٌ حَرِجَة بين ضرورةٍ وإمكانيّة . هي من جهةٍ **ضرورة** لعلاقتها ببُنية العقيدة بدرجةٍ أو بأُخرى . ومن جهةٍ أُخرى **إمكانيّة** غائبةٌ لعجز اللغة عن الإحاطة بمعانيها .

السؤالُ الآن : كيف السبيل إلى الجَمْع بين أنّ القرآن أُنزل بـ "لسانٍ عربيٍّ مُبين " (النحل/١٠٣) و "قرآن مُبين" (الصّافّات/٦٩) و "إنّا أنزلنا عليك الكتابَ للناس" (الزُّمَر/٤١) . . . الخ. وبين عجزنا عن تصوّر كُنه كثيرٍ من كلماته ؟

نعتقد أنّ ها هنا الحدود المرسومة بين التدبُّر والتأويل . إنّنا عاجزون عن تصوّر كُنه العرش . مثلاً . وماهيته ، ولكنّ عجزنا لا يتنافى إطلاقاً مع التصديق بما جاءت به الآية . فالتصديق بأصل الموضوع شئٌ ، ومعرفة كُنهه شئٌ آخَر. نحن قلنا أنّ نصّ الزُمَر أبعدُ عن الفهم ، ومع ذلك فإننا نقولُ أيضاً أنه يودع في نفس المُتدبّر ، خصوصاً حين نتدبّره بالمُقارنة مع قوله تعالى :" يوم نطوي السماءَ كطيّ السجلّ للكُتب كما نبدأ أوّل خلقٍ نُعيدُه (الأنبياء/١٠٤) ، . يودعُ ما أراد الله سبحانه أن يودعَه عن نهاية الكون يومَ القيامة ، وسقوط القوانين الطبيعيّة المُسيّرة له . ذلك هو المقصود كما يبدو للمُتدبّر . وكلا المعنيين في النهاية صياغةٌ بشريّةٌ لمعانٍ فوق خبرة البشر. غاية ما يمكنُها تقريبُ المقصود ، بنحوٍ أقرب ما يكون إلى خبرة البشر وما تسَعُهُ لغتُهم .

وهذا هو النمطُ الثاني من الدّلالة اللغويّة في القرآن .

(٣)

النمطُ الثالث والأخير في الغاية من الإشكاليّة . نسوقه على سبيل استيفاء كلّ ما يمكن أن يدخلَ تحت عنوان البحث إجمالاً . سنتناوله على سبيل طرح الأسئلة .

إنّ بعض ما أتانا به كتابُ الله من قَصَص الأوّلين من أنبياءٍ وأُممٍ نراهُ أحياناً يخرجُ على الأُطروحة الصّلبة في موضوعيّتها ومنطقيّتها السّائدة في كلّ ما عداها ، وفقاً لمَجارى الأُمور وطبائع الأشياء .

فلنأخذ قصّةَ نبي الله يونس بن متّى (ع) مثالاً .

يأتي القرآنُ على ذكر قصة يونس(ع) مع قومه ستَّ مرّات . في ثلاثٍ منها يُوردُ قصّةً خلاصتُها أنّه قد ذهبَ مُغاضِباً لنزول العذاب بقومه . وركبَ سفينةً ، حيث

وقعتْ عليه القُرعة ليُلقى في اليمّ . فالتقمهُ حوتٌ ليبقى في بطنه مدّة أيام ، تختلفُ الروايات المُفسّرة أنّها كانت بين ثلاثة أيّام أو خمسةٍ وأربعين يوماً . ثم ألقاه في العراء حيّاً مُدنفاً ، حيث استظلّ بشجرة من يقطين إلى أن شُفي وعاد إلى قومه فآمنوا .

السؤال : هل هذه القصّة إخبارٌ من الله تعالى بما وقع بالفعل . أم هو روايةٌ لِما كان مُتداولاً ، بقصد أخذ ما فيه من العِبرة ؟

في ختام سورة يوسف آياتٌ قد تكون ذات علاقة بالإشكاليّة :" وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القُرى . . . الآية " إلى أن يقول :" لقد كان في قَصَصهم [الرُسُل] عبرةٌ لأُولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديقَ الذي بين يديه . . . الآية " . (يوسف / ١٠٩ و١١١) . فإذا فهمنا من الآية الثانية أنّ في " قَصَصهم" ماهو تصديقٌ " لِما بين يديه "، من روايات ، أي لرواياتٍ مُتَدَاوَلَةٍ بقصد ما فيها من عبرة . فإنّ بعض ما ورد في القرآن من قَصَص الأوّلين يكون نمطاً دلاليّاً مُختلفاً عن الاثنين السابقَين . مثيل ما في القصص المحبوكة التي نهتمُّ بقراءتها ليس لأنها تروي أحداثاً قد وقعت بالفعل ، بل لِما فيها من مغازٍ وعِبَر وتجربةٍ بشريّة .

(٤)

كلمةٌ أخيرة تتصلُ بموضوع هذا البحث ، وإن لم تكُن منه في الصميم. نسوقُها لأنها منهجٌ مُتميّزٌ في التعامل مع النصّ القرآني، ناظرٌ إلى دلالته الواقعيّة وليس اللغويّة .

ذلك أنّ الأحاديث المُفسّرة الواردة عن أهل بيت العصمة (ع) هي غالباً ، بل وغالباً جدّاً ، تطبيقٌ أو جريٌ . وليست تفسيراً بالمعنى الذي درجتْ عليه كُتُبُ التفسير. والجريُ نمطٌ توضيحيٌّ ، وإن شئتَ قلتَ إرشاديٌّ ، يعمدُ إلى تطبيق المعنى القرآني على مصداقه الفعلي . ليس المقصود من هذا النمط من الأحاديث البيانيّة تفسير كامل المعنى ، بل تطبيقُه على ما يجري عليه . (ومن هنا يُسمّى "الجري" أخذاً بما ورد عن الإمام الجواد (ع) : "القرآن يجري كما يجري الليلُ والنهار") . إمّا لحاجةٍ فعليّة إلى هذا المعنى بالذات ، وإمّا لكونه أبرز المصاديق . مثل تفسير "الصبر" في قوله تعالى :"استعينوا بالصبر والصلاة" (البقرة/٤٥) بالصوم (تفسير العيّاشي /٤٣) ، أو تفسير "يُطيقونه" في قوله تعالى : "وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ" (البقرة ١٨٤) بالشيخ الكبير ومَن يأخذه العطاش" . أو تفسير الإمام الصادق (ع)

"النعيم" في قوله تعالى :"ثم لتُسألُنّ يومئذٍ عن النعيم" (التكاثر/٨) بحُبّ أهل البيت (ع) . الخ. وهو بابٌ جليلٌ ، يُبقي الأُطروحةَ القرآنيّة مفتوحةً على ما يأتي به الزمان من صنوف الموضوعات وسُبُل التفاعل معها .

المغزى في هذا أنّ الأئمة (ع) اجتنبوا تفسير كامل معاني الآيات ، كيلا تُستنفَدَ في معنىً بعينه . واستبقاءً لها حيّةً مفتوحةً على ما يستجدّ . وأيضاً تعزيزاً لمنهج ردّ المُتشابه إلى المُحكم حيث يمكن ، الذي حثّوا عليه حثّاً شديداً .

أختمُ بالحديث الشريف عن الإمام أمير المؤمنين (ع) حيث سأله سائل : "هل يأتيكم شئٌ من الوحي ؟ ، فقال في الجواب : " لا والذي فلقَ الحبّةَ وبرأ النّسَمَة" . ثم استدرك مُستثنياً " **إلا أن يأتينا اللهُ فهماً من كتابه** " فجعل إيتاء الله عبدَه فهماً من كتابه المُنزَل وحياً أو بمنزلة الوحي . وعن الإمام الصادق (ع) عن أبيه عن آبائه (ع) عن رسول الله صلوات الله عليه وآله : " ظاهرُهُ [القرآن] أنيق وباطنُهُ عميق . له تُخوم ، وعلى **تُخومه تُخوم** . لا تُحصى عجائبُه ، ولا تَبلى غرائبُه " . وفي هذين الحديثَين الجليلَين معاني عميقة لمَن تأمّل .

والحمد لله رب العالمين

—